مُداخلة د. علي محمد فخرو

مُنتدى أمريكا والعالم الإسلامي

الموضوع العربي – الإيراني

الدوحة، 1 – 3 يونيو 2015م

الجانب الذي يهمّنا من الموضوع الإيراني، وهو الجانب المُتعلق بالعلاقات العربيّة – الإيرانيّة، يتطلب النظر إليه من خلال زاويتين هما زاوية الثوابت من جهة وزاوية ألاعيب السياسة المُتقلِبة غير الثابتة عبر الأزمنة من جهة أخرى.

هناك ثوابت ثلاثة بالغة الأهمّية، ستفرض نفسها بصورة دائمة في المشهد العربي – الإيراني. الثابت الأول هو الجغرافية. فإيران تكوِن نصف الخليج العربي أرضاً وثلاثة أضعاف دول مجلس التعاون الخليجي سكاناً. والجميع يعرف أن لحجم الجغرافيا وكثافة السكان تأثيرات هائلة على الاقتصاد والأمن، وبالتالي السياسة. إيران وشعب إيران باقيان دائمان في حياتنا، أما الآخرون من غير الإيرانيين والعرب فوجودهم مؤقت، يأتون ويذهبون، وإذن بالتعامل الدائم هو غير التعامل مع المؤقت.

الثابت الثاني هو التاريخ الطويل المُشترك بين ضفتَي الخليج الذي بنى علاقات إنسانيّة وهجرات جماعيّة، ومن ثمّ إرثاً ثقافيّاً واجتماعيّاً وفكريّاً مُشتركاً، ولنذكِر أنفسنا بالإسهامات المهمّة لذوي الأصول الفارسيّة، خلال القرون الهجريّة الست الأولى، في مجالات اللغة والفلسفة والعلوم والفقه وذلك إبَان وهج الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وهل فينا من يستطيع إنكار تأثيرات التاريخ والثقافة على علاقات الدول والأمم؟

الثابت الثالث هو الدين الواحد المُشترك، الدين الإسلامي، الذي يولّد مشاعر عاطفيّة حميميَة ونظرة واحدة مُشتركة للكثير من الأمور الحياتيّة، والذي بدوره يُكوَن لقيام التكتلات الإقليميّة المتحالفة أو المندمجة في ساحات السياسة والاقتصاد والأمن والثقافة. ولا تستطيع الخلافات المذهبيّة التقليل من أهمّية هذا الثابت.

إذن لا العرب ولا الإيرانيّون يستطيعون تجاهل تلك الثوابت.

إذا انتقلنا إلى المتحوّل المتغيّر فأنا أمام مشهد معقَد، سنبرز أهمّ جوانبه. الجانب الأول هو مجموعة من الأخطاء والخطايا التي ارتكبتها وترتكبها إيران في علاقتها مع الأمة العربيّة. فمثلاً لا يستطيع الإنسان فهم الرفض الإيراني للإحتكام إلى المحاكم الدوليّة بشأن خلافها مع دولة الإمارات العربيّة المتحدة حول الجزر الثلاث والإصرار على احتلالها بالقوّة. ومثلاً لا يستطيع الإنسان إدراك الحِكمة من وراء التدخل الإيراني في الشؤون البحرينيّة، الداخليّة والخارجيّة، من خلال تصريحات بعض مسؤوليها وبعض جهات الحكم فيها. فلماذا الإبقاء على العقليّة الشاهنشاهيَة القديمة بشأن اعتبار البحرين جزءاً من إيران أو على الأقل مجالاً منمجالات نفوذها، مع أن شعب البحرين قد حسم هذا الموضوع في السبعينيّات من القرن الماضي بإشراف من هيئة الأمم المتحدة وقبول من الجانب الرسمي الإيراني؟ ومثلاً، لا تستطيع الشعوب العربيّة قبول

المنطق الإيراني بشأن الدور الطائفي الذي لعبته إيران في حياة العراق السياسيّة وأدّى إلى تمزيق لحمته الاجتماعيّة والتهيئة لصعود الهمجيّة المجنونة وإلى إعداد العراق لتمزيقه إلى دويلات طائفيّة وعرقيّة مُتناحرة في المستقبل. والمجال لا يسمح بذكر الكثير من ارتكاب الخطايا الأخرى عبر أرض العرب.

الجانب الثاني هو خطأ تنصيب النظام السياسي – الديني الإيراني نفسه، بقصد أو بدون قصد، كمدافع ومسؤول عن الشيعة العرب، أينما وجدوا. ألا تمثل تلك النظرة وممارساتها في أماكن كثيرة تدخلاً في الشؤون المجتمعيّة العربيّة الداخليّة من جهة واحتقاراً لقدرات الشيعة العرب، كمواطنين عرب، وبتعاون مع إخوانهم المواطنين الآخرين، في الدفاع عن أنفسهم وعن مطالبهم دون حاجة لوصاية مفروضة ومرفوضة من قبل الكثيرين من الشيعة وغير الشيعة؟ أن تفضّل إيران بناء نظامها السياسي والاجتماعي والثقافي على أسس مذهبيّة، بدلاً من أسس إسلاميّة جامعة تنال إعجاب كل المسلمين، فهذا شأن يخصّها، حتى لو كنا نرى في ذلك التوجّه تشويهاً لوحدة الإسلام والمسلمين. لكن أن تنصِب إيران نفسها حامياً ومتدخلاًفي شؤون الأكثريّات أو الأقليّات الشيعيّة في هذا البلد العربي والإسلامي أو ذاك فإنها ترتكب حماقة تدخلها في مماحكات سياسيّة ومذهبيّة وأمنيّة مع الكثير من الدول العربيّة والإسلاميّة. وهي بهذه الممارسات تعطي فرصة ذهبيّة للطائفيين والانتهازيين والمُرتشين وعملاء الاستخبارات الأجنبية لإذكاء الحروب والمُشاحنات العبثيّة السنّية – الشيعيّة التي تأكل الأخضر واليابس في كل بلاد المسلمين وبلاد العرب. ويعرف كل جالس في هذه القاعة كل تفاصيل الفواجع الطائفيّة التي نعيشها يوميّاً والتي تسمح للبربريّة الهمجيّة الجهاديّة التكفيريّة بأن تجد لنفسها الأنصار ولحقاراتها الدينيّة الدعاة المخرّفين.

الجانب السياسي الثالث هو جانب مُشرق في علاقة إيران بأهمّ قضيّة في حياة العرب:

قضيّة المُقاومة العربيّة للوجود الصهيوني الاستيطاني في فلسطين المُحتلة. جاحد وغير مُنّزن من ينكر الدور الإسلامي - العروبي الأخلاقي الإيراني في مُساعدة المقاومة اللبنانيّة في انتصاراتها الكبيرة على العدو الصهيوني المدعوم من قبل قوى إمبرياليّة مُتعدّدة، وفي مُساعدة المقاومة الفلسطينيّة في غزّة لإفشال الكثير من المخطّطات الصهيونيّة وبقاء غزّة قلعة مقاومة.

دور إيران في التصدّي للتمدّد والهيمنة الصهيونيّة لا ينكره إلا فاقدوا المروءة. وبالطبع هناك الكثير من الجوانب السلبيّة والإيجابيّة الذي لا يسمح الوقت بالدخول في أشكالها وتفاصيلها.

في اعتقادي، أمام تلك الأسس والمشاهد يحتاج الجميع، عرب وإيرانيّون، أن يأخذوا في علاقاتهم بالاعتبارات التالية:

1 - رفض النظرة التبسيطيّة القائلة بأن المشكلة تكمن في توتّر العلاقات الإيرانيّة مع دول مجلس التعاون. إنها موجودة على مستوى قومي عربي شامل الوطن العربي كله.

2 – بالنسبة لنا كعرب فإن اللاعبين المحليين الأساسيين في الشرق الأوسط هم العرب والإيرانيّون والأتراك. والعلاقات الإيرانيّة – العربيّة المُتوترة هي جزء من علاقات متوترة بين الأطراف الثلاثة، وهي لن تحلّ حلاً جذريّاً إلا من خلال حوار بين الأطراف الثلاثة للإتفاق على خطوط حمر يتجنّبها الجميع،

وعلى مبادئ وأرضيّة مشتركة يقبلها الجميع، وعلى توازن ندّي مساوي يأخذ بعين الاعتبار مصالح الجميع. ذلك أن تركيا هي الأخرى لها أخطاء وخطايا تستوجب النظر فيها على مستوى إقليمي عربي – إسلامي.

3 – إن العرب بحاجة لحلّ المشاكل المتواجدة فيما بين أقطارهم، والذي بدونه لن يكونوا ندًا متساوياً في تلك التركيبة الثلاثيّة. وهذا موضوع كبير ووجودي لا يسمح الوقت بالخوض فيه.

4 – يحتاج الجميع لإعطاء أولويّة قصوى ومُستعجلة لمُعالجة الانقسامات والصراعات والصراعات المذهبيّة الإسلاميّة. ستكون هناك ضرورة لتنقية بلادات التاريخ، لمُراجعة الشطط والتزمُت والتطرُف والانغلاق المتخلف في حقل الفقه الإسلامي، للاتفاق على ضوابط تحكم جنون بعض خطباء المساجد والحسينيّات وعبثيّة بعض منابر الإعلام ومُتحدّثيه ولتنقيح مناهج التعليم الديني من قبل الجميع. بدون ذلك سيكون غير ممكن الحديث عن التعاون أو الاندماج الاقتصادي، عن التنسيق الأمني وعن التقارب السياسي. ذلك أن مجانين التكفير الطائفي، وهم نتاج الجنون المذهبي، لن يعدموا وسيلة لتدمير كل تقارب بين الجهات الثلاث.

5 – لن تكفي الجهود الحكوميّة لإتمام كل ذلك، فالمهمّة كبيرة وصعبة. ستكون هناك حاجة لإشراك كل مُؤسّسات المجتمعات المدنيّة في ذلك الجهد خصوصاً وأن سوء الفهم بين المجتمعات قد بنته القرون.

6 – سادساً وأخيراً، سيكون مفجعاً لو أن كل تلك الجهود المطلوبة، السالفة الذكر، تمّت تحت مراقبة ووصاية أيّة قوى خارجيّة، غير عربيّة وغير إسلاميّة، إقليميّة أو دوليّة. استباحة الأرض والحياة العربيّة والإسلاميّة يجب أن توقف، فتاريخ تدخُلاتها أسود.

د. علي محمد فخرو